مقدمة:

فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ نجح جند مصر فى "**إذابة**" السد الترابى الذى أقامه الإسرائيليون على الضفة الشرقية لقناة السويس. ولقد تصور الإسرائيليون أنهم بإقامتهم هذا السد، سيتمكنون من إعاقة أى هجوم مصرى محتمل، وأنهم بذلك قد خلقوا للمصريين مشكلة يستحيل عليهم حلها. ولم يكن الإسرائيليون مخطئين فى تفكيرهم؛ إذ إن استخدام الطرق المعروفة لإزالة السدود الترابية سيمنحهم الوقت الكافى لتدمير من يفكر فى الإقدام على هذه المحاولة. وكانت المفاجأة التى أذهلتهم هى استخدام المصريون لطريقة بسيطة وغير مسبوقة. وكانت الطريقة هى "استخدام مضخات المياه" لإزالة السد الترابى. وهى الطريقة التى اقترحها ضابط صغير الرتبة من سلاح المهندسين أرقه وشغل تفكيره وجود السد الترابى، فوافقه عليها قائده المباشر وتبنتها القيادات العليا للقوات المسلحة المصرية.

تقدم لنا هذه الواقعة نموذجا مثاليا لما يمكن أن يؤدى إليه "**الابتكار**" Innovation وحسن استغلاله، أو إدارته، من نتائج. فبداية تعتبر هذه الواقعة تجسيدا حيا لمفهوم "الابتكار" الذى يعرفه علماء الإدارة بأنه "أى حل غير تقليدى لمشكلة مستعصية تعجز طرق التفكير المألوفة عن حلها". ويلقى هذا التعريف الأضواء على الجوانب المختلفة لعملية "**إنتاج الابتكار**". وأول هذه الجوانب هى أن الابتكار كحل غير تقليدى، لابد وأن يتضمن إنتاجًا لمعرفة جديدة. أما الجانب الثانى فيعنى بكيفية تفعيل هذه المعرفة؛ أى باستخدامها فى حل المشكلة قيد البحث أو فى خلق فرصة جديدة يمكن استغلالها. ولقد أدى ارتكاز اقتصاديات المجتمعات المتقدمة المتزايد على "**الموارد المعرفية**"، أو المعرفة العلمية والتكنولوجية بكافة أشكالها، والتى ينتجها ويحوزها أفراد تلك المجتمعات، وتقلص الدور الذى تلعبه الموارد التقليدية المتمثلة فى الموارد الطبيعية والمالية.. أدى هذا كله زيادة الاهتمام بالابتكارات وبعملية إنتاجها. فلقد وعى علماء الإدارة والاقتصاد ورجال الأعمال فى بلاد العالم المتقدم أهمية الدور الحيوى، الذى تلعبه "الابتكارات" بكافة أشكالها فى تحقيق مزايا تنافسية للمؤسسات الاقتصادية وفى زيادة الدخل القومى لهذه البلدان. وكانت نتيجة هذا الوعى ميلاد علم جديد هو علم "**إدارة الابتكار**" Innovation Management

الذى يهتم بكافة العمليات التى يمكن استخدامها فى تطوير منتجات وخدمات وعمليات جديدة أو محسنة. وهكذا لم تعد "**إنتاج الابتكارات**" عملية تترك للصدفة، بل أصبحت عملية عقلانية واعية، يتم التخطيط لها ويتم تهيئة المناخ المواتى لنجاحها وضمان استدامتها.

ولم يكتف علماء الإدارة باستخدام علم "إدارة الابتكار" فى تعزيز قدرة المؤسسات الاقتصادية على إنتاج الابتكارات بكافة أشكالها بل سعوا لتطبيقه على المجتمع ككل، فظهر مفهوم "المنظومة القومية للابتكار" National System of Innovation. ويعرف العلماء هذه المنظومة بأنها المنظومة التى تتألف من مؤسسات القطاعين العام والخاص والجامعات والهيئات الحكومية، وتهدف إلى إنتاج الابتكارات العلمية والتكنولوجية والتنظيمية لصالح رفاهية المجتمع ككل. ولم يغفل العلماء فى سعيهم لتأصيل هذا المفهوم عاملين مهمين ضروريين لنجاح هذه المنظومة فى بلوغ أهدافها المرجوة. وأول هذه العوامل هو طبيعة القوى المحركة لعملية الابتكار أو "**التوتر الخلاق**" Creative Tension الذى عرفه عالم الإدارة الأمريكى سينج Senge، فى كتابه الشهير "النظام الخامس: فن وممارسة المنظمات المتعلمة"، بأنه الطاقة التى يولدها الوعى بتباعد أحوال الواقع عما هو مأمول، فتدفع بمن يعى أبعاد هذا التباعد ويعانى من آثاره إلى الإبداع والابتكار. أما العامل الثانى فيتعلق بـ "**ثقافة الابتكار**" التى تشكل البنية التحتية الثقافية، اللازمة للاستفادة من طاقة التوتر الخلاق واستخدامها الاستخدام الأمثل. وهى الثقافة التى ترفض الوضع الراهن Status Quo، وتسعى بهمة وراء الأفكار الجديدة أيا كان مصدرها وأيا كانت درجة "شططها" أو غرابتها وخروجها عن المألوف، ولاتخشى خوض التجربة وممارسة التجريب، وتتسامح مع الفشل، وتعتبره خطوة فى طريق النجاح. ثقافة منفتحة لكل جديد ومرحبة به ... تشجع التغيير ولاتؤثم البدع ...!... ثقافة لاتقيد فكر الإنسان فى أطر ضيقة، ولاتحصره فى حدود مقررة سلفًا.

واليوم والمجتمع المصرى يواجه عديدًا من المشاكل المزمنة، بدءا من ضبط مرور العاصمة وانتهاءً بقضية الدعم ومرورًا بتكدس الطلاب فى مؤسسات التعليم الحكومية.. ما أحوجنا إلى إنشاء منظومة القومية للابتكار

وإقامة "البنية التحتية المعنوية"، بمكوناها "التوتر الخلاق" وثقافة الابتكار"، اللازمة لضمان نجاحها. فما أحوجنا إلى تبنى وإشاعة "ثقافة الابتكار" تهيئ المجتمع المصرى من ابتداع حلول غير تقليدية لما يواجهه من مشاكل. وما أحوجنا إلى حملة قومية لتنقية ثقافتنا السائدة، مما يعوق عملية "إنتاج الابتكارات" بدءًا من قيم "من فات قديمه تاه" و"من خاف سلم" و"إمشى سنة ولاتعدى قنا" وانتهاءً بثقافة "العنعنات". ومماأحوجنا إلى "عقد اجتماعى" جديد، ينظم العلاقات بين مكونات المجتمع المصرى، فيسمح بالـ "التوتر الخلاق" بينها ليحل بذلك محل "التوتر الهدام" الذى يسود اللحظة الراهنة. هذا التوتر الهدام الذى من أهم ملامحه عدم التشخيص الدقيق لأسباب مايواجهه المجتمع من مشاكل وتحميل مكون واحد فقط من مكوناتها، هو فى العادة الحكومة، مسئولية حدوث المشكلة ومسئولية حلها، فأسباب مشكلة فوضى المرور فى العاصمة، على سبيل المثال، لاتعود فى المقام الأول إلى نقص القواعد المنظمة، بقدر ماتعود إلى عدم التزامنا بها. كما يتبدى هذا "التوتر الهدام" فيما تسعى إليه بعض التيارات من إحداث حالة مواجهة وخصام، غير مبررة فى أغلب الأحيان، بين هذه المكونات. ماأحوجنا إلى "عقد اجتماعى" جديد بين الحكومة وعموم المصريين، ينظر إلى الإنسان المصرى البسيط فى "تحايله على المعايش" لابوصفه سبب المشاكل، بل بوصفه المصدر الرئيسى للحلول المبتكرة. فلقد استقر رأى علماء "إدارة الابتكار" على أن أحد أهم مصادر الابتكارات هم من يعانون معاناة مباشرة من المشكلة ويتأثرون بها، أى "ولئك "اللى فى وش المدفع". عقد جديد يتبنى فلسفة "من تحت لـ فوق" لحل المشاكل بدلا من فلسفة "من فوق لـ تحت"، التى أثبتت عدم فعاليتها فتكتسب الحلول بذلك شرعيتها وتتأكد قابليتها للتنفيذ، ويتم تفعيل "التوتر الخلاق" فى المجتمع المصرى.